إذن ﴿ فَهَدَيْنَاهُمْ ﴾ فى هذه الآية الكريمة معناها دللناهم على طريق الإيمان ولكنهم اختاروا طريق العمى والكفر .

ويقول المولى سبحانه وتعالى بعد ذلك :

﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ اللَّهِ ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾

وفى سورة الأنفال تصنيف آخر فى قوله تعالى :

﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَّنَصَرُوا أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٧٤﴾ ﴾ [الأنفال]

وفى هذه الآية الكريمة من سورة الأنفال كان تصنيف المؤمنين بعد الهجرة مباشرة، وانتهت الهجرة؛ وأصبح الجميع سواء، فجاء التصنيف الجامع فى آية التوبة .

لقد أوضح المولى سبحانه وتعالى أن هذه الأعمال لم تكن مقبولة من المشركين، أما إن قام بها المؤمنون فلهم درجة عند الله. وفى هذه الآية الكريمة يصفهم الحق بأنهم ﴿ أَعْظَمُ دَرَجَةً ﴾، و﴿ أَعْظَمُ ﴾ صيغة أفعل التفضيل، وهى تعطى قدراً زائداً عن الأصل المعترف به، فيقال : فلان أعلم من فلان . وبهذا يكون الشخص الثانى عالما، ولكن الشخص الأول أعلم منه . ويقال : فلان أكرم من فلان، أى أن الموصوف الثانى كريم، والموصوف الأول أكرم منه . والله

سبحانه وتعالى أراد أن يبين لنا الفوز عنده، فقال:

﴿أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴾ [التوبة: ٢٠]

فهؤلاء هم الذين يحصلون على أكبر الأجر عند الله تعالى، وهم المؤمنون المهاجرون، والمجاهدون بأموالهم وأنفسهم، والفوز حكم يؤدى إلى أن تأخذ ماتحبه نفسك. فقال الحق موضحاً مايفوزون به:

﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴾ [التوبة: ٢٠]

ومادام هؤلاء هم الفائزون، فالفوز إنما يكون فى مضمارين اثنين. فالذين يصنعون أمورا خاصة بالدنيا قد يفوزون فيها بدرجة من النعيم، ولكن نعيمهم على قدر إمكاناتهم؛ وهو نعيم غير دائم ؛ لأنه إما أن يزول عنهم بذهاب النعمة، وإما أن يزولوا هم عنه بالموت، إذن فهو نعيم ناقص.

أما الذى يؤمن ويهاجر ويجاهد ويعمل لآخرته، فسوف يفوز بنعيم لا على قدر إمكاناته، ولكن على قدر إمكانات الله، ولامقارنة بين إمكانات الله وإمكانات خلقه. وفوق ذلك فهو نعيم دائم لايتركك فيزول عنك، ولاتتركه لأنك فى الجنة خالد لاتموت.

ثم يذكر الحق بعد ذلك قوله تعالى:

﴿ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ﴿٢١﴾ ﴾

إذن فهذا قمة الفوز للقوم الذين يبشرهم الله فى هذه الآية بالرحمة منه وبالرضوان المقيم. والبشارة ـ كما نعلم ـ هى نوع من الإعلام بشىء سوف يأتى مستقبلا ، أى ،أنك حين تبشر إنسانا فأنت تخبره بشىء قادم يسره.

إذن ففائدة البشارة أن تغرى الإنسان بسلوك السبيل الذى يحققها، فأنا أبشرك بالنجاح إن استقمت وذاكرت واستمعت للأساتذة ، ويشجعك كلامى لتجتهد حتى تحقق هذه البشارة، فكأن البشارة تجعلك تتخذ الوسيلة التى توصلك إليها.

ولذلك فقد قلنا : إن الأسباب والمسببات والعلة والمعلول والشرط والجواب؛ كلها يجب أن تحرر بشكل آخر، لأننا كنا نتعلم أن الشرط سبب فى الجواب؛ كقولك: «إن تذاكر تنجح»، وعلى ذلك فالشرط هو المذاكرة، وسبب الجواب هو النجاح، ونقول: لا، إن الجواب هو السبب فى الشرط لأنك لاتذاكر إلا إذا تمثل لك النجاح بكل مايحققه لك من فرحة، إذن فالشرط سبب فى وجود الجواب واقعا. والجواب سبب فى وجود الشرط دافعا، أى أ: ن الدافع لمذاكرتك هو مايمثله لك النجاح من قيمة مادية ومعنوية. وكل إنسان يرغب فى النجاح، لكن النجاح لايتحقق بالدعاء فقط، بل بالمذاكرة التى تحقق النجاح كواقع. بمعنى أنك لاتذاكر إلا وقد تمثل لك النجاح بمواهبه ومزاياه وبمكانته ويفرح أهلك بك، وبفرحك بنفسك. ولهذا نقول :إن السبب هو الذى يوجد أولاً فى الذهن.

ومثال آخر: لنفترض أنك تريد أن تسافر إلى الطائف. فتكون الطائف هى الغاية، وتكون أنت قد خططت للوسيلة وفى ذهنك الغاية، إذن فالجواب يوجد دافعا، والشرط يوجد واقعاً. وقوله تعالى: ﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم﴾ أى: يخبرهم بالنهاية السارة التى سوف يصلون إليها ليتحملوا مشقة التكاليف التى يأمرهم

بها المنهج ؛ لأن الجنة محفوفة بالمكاره [1]، ولأن التشريع الإلهى تقييد لحرية الاختيار فى العبد، والمؤمن مقيد بأوامر الله تعالى فى «افعل» و«لا تفعل».
ولكن غير المؤمن إنما يتبع هواه فى كل حركاته، ويفعل ما يشاء له من الهوى ويطيع نزواته كما يريد، أما المؤمن فحريته فقط فيما لم يرد فيه تشريع من الله تعالى، أما ما يخضع للمنهج فهو مقيد الحركة فيه بما قضى الله به. فكأن الإيمان جاء ليقيد، ولكن إذا قارنا بين الجزاءين، نجد أن الذى يتبع شهواته فى الدنيا إنما يحصل على لذة موقوتة، وعمره فى الدنيا محدود، إذن فهو الخاسر، لأن الذى قيد حركته بمنهج الله يأخذ اطمئنانا فى الدنيا ونعيما مقيما لا يزول ولا ينتهى فى الآخرة [2]. والمثال الذى أضربه دائما هو الطالب الذى لا يذهب إلى المدرسة ولا يذاكر، ولكن يقضى وقته فى اللعب واللهو، وهو قد أعطى نفسه ما تريد، ولكنه أخذ متعة محدودة، ثم بعد ذلك يعيش فى شقاء بقية عمره.

أما الذى قيد حركته بالمذاكرة، فقد منع شهوات نفسه فى اللعب واللهو. وتكون الثمرة أنه يحقق لنفسه مستقبلا مريحا ومرموقا بقية عمره.

إذن فكل من الطالب الذى يجتهد وذلك الذى يلهو ويلعب، كل منهما أخذ لوناً من المتعة. ولكن أحدهما أخذ متعة قصيرة جداً، ثم أصبح من صعاليك الحياة، أما الثانى فقد قيد نفسه سنوات معدودة ليتمتع بمستقبل ناجح.

كذلك أنت فى الدنيا ؛ إن قيدت نفسك بالتكاليف «افعل» و «لا تفعل»،

(١) عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال قال رسول الله ﷺ : «حفت الجنة بالمكاره، وحفت النار بالشهوات». أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٨٢٢) وأحمد فى مسنده (٣/ ١٥٣، ٢٥٤، ٢٨٤) والترمذى فى سننه (٢٥٥٩) وقال : حسن غريب من هذا الوجه صحيح.

(٢) وهذا فى مثل قوله تعالى : ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٩٧) ﴾ [النحل]
أما الذى خرج عن منهج الله وأعرض عنه فقد قال عنه القرآن : ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ (١٢٤) ﴾ [طه]

فظاهـر الأمر أنك قَيَّدْتَ حريتك، وإن فعلت ذلك بـرضا، فـالله يعطيك راحة واطمئنانا ومتعة فى النفس. ولـذلك نجد الصلاة وهى التى يؤديها المسلم خمس مرات فى اليوم على الأقل؛ هذه الصلاة فى ظاهـرها أنها تأخذ بعضا من الوقت كل يوم، ولكنهـا تعطى راحة نفسيـة ، كما أنها تعطى اقتناعا يفـوق التصور إن خشع فيها الإنسـان وأداها بحقهـا، وكان صلى الله عليـه وسلم يقول: «يـابلالُ أرِحْنَا بالصلاة».(١)

كما قال صلى الله عليـه وسلم ضمن حديث رواه عنـه أنس بن مالك رضى الله عنه «وجُعِلَتْ قُرَّةُ عينى فى الصلاة».(٢)

لأن التكليف ينتقل من المتعـة إلى الراحـة. ويتمتع الإنسـان فيها بتجليـات ربه وفيوضاته فترتاح نفسـه وتهدأ. وانظر إلى قول الحق سبحانه وتعالى ﴿يبشرهم ربهم﴾، تجد البشارة هنا آتيـة من رب خالق. والرب هو المالـك ؛ والمدبر الذى يرتب لك أمورك، وهو مأمون عليك.

﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ﴾ [التوبة: ٢١]

والـرحمة والـرضوان مـن صفات الله وهى صفـات ذاتيـة فى الله، ومتعلقـات العبد فيها أنه سبحانه يهبها لمن يشاء.

ويتابع المولى سبحانه وتعالى قوله:

﴿وَجَنَّاتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ﴾ [التوبة: ٢١]

ونجد أن هذا ترقٍّ وتدرجٌ فى النعمة، فقـد بشرهم الله سبحانه أولاً بالرحمة،

(١) أخرجـه الإمـام أحمد فى مسنـده (٥/ ٣٦٤) وأبـو داود فى سننـه (٤٩٨٥) عن رجل من أسلم، قـالـه أحمد واللفظ له.
(٢) حـديث أنس أخرجـه أحمد فى مسنـده (٣/ ١٢٨، ١٩٩، ٢٨٥) والنسـائى فى سننه (٧/ ٦١) والحاكم فى مستدركـه (٢/ ١٦٠) وقال: صحيح على شرط مسلم ولم يخرجـاه ووافقه الـذهبى،وتمام الحديث «حبب إلىَّ من الدنيا النساء والطيب...»

وهى ذاتية فيه، ثم بنعمة دائمة فى الحياة. ولنلحظ أن هناك فارقا بين النعمة والمنعم. ونضرب لذلك مثلا ـ ولله المثل الأعلى ـ إذا دعاك إنسان فى بيته وقت الطعام ثم جاء بطبق فيه تفاح، لابد أن يكون التفاح فى الطبق يكفى كل الجالسين بحيث يأخذ كل واحد منهم تفاحة، فإذا أمسك صاحب البيت بتفاحة وأعطاها لأحد الجالسين. فهذا مظهر من مظاهر رعاية خاصة من صاحب البيت، وتمييز لشخص ضيفه عن بقية الضيوف ، وهذه تمثل درجة أعلى من الكرم والاهتمام؛ فهى تمثل الرحمة والرضوان. أما التفاح نفسه فهو النعمة، ومثله مثل الجنات.

وهكذا نرى أن هناك اختلافاً فى التكريم.و المؤمنون حين يرتقون فى درجة الإيمان؛ يعيشون دائما مع النعمة والمنعم، فإذا جاء الطعام قالوا: «باسم الله»، وإذا أكلوا قالوا: «الحمدلله»، ولكنهم إذا ارتقوا أكثر فى الإيمان عاشوا مع المنعم وحده، ولذلك يباهى الله بعباده الملائكة[1]؛ يباهى بعبادتهم وطاعتهم التى يلتزمون بها على أى حالة يكونون عليها ، ولو نزل بهم أشد البلاء وسلبت منهم النعم، وهؤلاء من أصحاب المنزلة العالية. ولذلك «فأشد الناس بلاء الأنبياء ثم الصالحون ، ثم الأمثل فالأمثل[2]» ؛ ليرى الحق سبحانه وتعالى من يحبه لذاته وإن سلب منه نعمة، وهذه منزلة عالية. فمن عبد الله ليدخل الجنة أعطاها له، ومن عبده سبحانه؛ لأنه يستحق أن يعبد، فسوف يرتقى فى الجنة ليرى وجه الله فى كل وقت؛ وأما الآخرون فيرونه لمحات ، ولذلك يكون الجزاء فى الآخرة على قدر العمق الإيمانى للعبد، لذلك يقول الحق سبحانه وتعالى:

(١) أخرج ابن ماجه فى سننه (٨٠١) عن عبدالله بن عمرو أن رسول الله ﷺ قال : «أبشروا .. هذا ربكم قد فتح باباً من أبواب السماء ، يباهى بكم الملائكة . يقول : انظروا إلى عبادى قد قضوا فريضة ، وهم ينتظرون أخرى » وقد أخرج نحوه أحمد فى مسنده (٢/١٩٦) ، قال البوصيرى فى الزوائد : هذا إسناد صحيح ورجاله ثقات .

(٢) أخرجه أحمد (١/ ١٧٢) والترمذى (٢٣٩٨) وابن ماجه (٤٠٢٣) من حديث سعد بن أبى وقاص . قال الترمذى : حسن صحيح .

﴿ فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحًا وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴾ [الكهف : ١١٠]

وقال أحد الصالحين: «إنى لا أشرك بك أحدا حتى الجنة، لأن الجنة أحد» .

وهنا يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ﴾ وقد ترحم ولكنك لاتنال الرضوان، فوضح المولى سبحانه وتعالى ذلك وأضاف «الرضوان» إلى «الرحمة»، ولذلك يقول الحق عز وجل: ﴿ بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ ﴾ والرضوان هو ما فوق النعيم. وبعد الرضوان يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿وَجَنَّاتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ﴾ .

ولقائل أن يقول : هل هناك جنة ليس فيها نعيم؟ ولماذا ذكرت النعيم؟ والجنة وجدت أصلا لينعم فيها الإنسان.

ونقول لمثل هذا القائل : انتبه والتفت جيدا إلى المعنى، فالمتحدث هو الله سبحانه وتعالى. وقد يكون عند الإنسان نعمة واسعة، ولكن يحيا فى الكثير من المنغصات ، مما يجعله لا يستمتع بالنعمة، كمرض يملؤه بالألم، أو ابن عاق يكدر حياته، أو زوجة تملأ الحياة كدرا ونكدا ، قد يحدث كل ذلك فلا يستمتع الإنسان بما يملك من نعمة الله؛ لأن المكدرات قد أحاطت به. وهنا يريد الحق سبحانه وتعالى أن يلفتنا إلى أن جنة الآخرة ليس فيها منغصات الدنيا، بل هى صفاء واستمتاع، يعطى فيها الحق سبحانه وتعالى لعبده ما تشتهيه نفسه ويبعد عنه جميع المنغصات، وقد يخاف الإنسان ألا يدوم مثل هذا النعيم، لذلك يطمئن الحق العبد المؤمن أنه ﴿نَعِيمٌ مُّقِيمٌ﴾ ، قد ينظر إنسان إلى أن الإقامة مقولة تحمل التشكيك، فقد تستغرق الإقامة زمناً طويلاً ثم

تنتهى، وشاء الله ــ عز وجل ـ أن يطمئن المؤمن بوعد حق، فوعد المؤمنين بالخلود الأبدى فى الجنة. فيقول سبحانه وتعالى:

﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ۝٢٢﴾

وهذا ما يؤكد الاطمئنان فى قول الحق سبحانه وتعالى: ﴿لَهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ﴾، وكلمة ﴿لهم﴾ أعطت شبه الملكية لهذا النعيم. ولذلك مهما تملك الإنسان فى هذه الدنيا، فهذا الامتلاك لايتجاوز حدود أن يجلس ؛ ويقوم الخدم بتنفيذ أوامره ؛ لأن المتعة إما أن تكون بيدك، وإما أن تنعم بالراحة ويقدمها لك غيرك. وعلى سبيل المثال حين تريد أن تأكل ، فإما أن تعد الطعام لنفسك ، وإما أن يعده لك غيرك. ولا يوجد إنسان مهما أوتى من ملك بإمكانه أن يحقق كل مايريده بيده. بل لابد من الالتجاء إلى مساعدة الآخرين. ولكن المؤمن فى الجنة ينال مايتمناه بمجرد أن يخطر الشىء بباله، وهذا يختلف عن الدنيا ؛ لأنك حين ترغب فى شىء فى دنيانا، لابد أن تقوم به بنفسك ،أو تعتمد على غيرك؛ لينفذه لك، حتى وإن كان ماتطلبه هو مجرد فنجان من القهوة، وأنت تحدد لصانعها الهيئة والنوع إن كنت تريدها بدون سكر ،أو بقليل من السكر ،أو بكثير من السكر، لأن كلا منا فى الدنيا إنما يحيا مع أسباب الله. ولكن المؤمن فى الجنة إنما يحيا مع المسبب وهو الله القادر العظيم.

وحين يقول المولى سبحانه وتعالى: ﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ﴾ فنحن نلحظ مقابلة الجمع بالجمع ، وهى كما علمنا من قبل تقتضى القسمة آحاداً ، فإذا دخل الأستاذ الفصل وقال لتلاميذه: أخرجوا أقلامكم، فكل تلميذ لا يخرج أقلاما، بل يخرج كل تلميذ قلمه . وإذا قلنا: اركبوا

سياراتكم فليس معنى هذا أن يركب كل واحد كل السيارات، ولكن معناه أن يركب كل واحد سيارته.

وقول الحق: ﴿جَنَّاتٍ﴾ ليس معناه أن يدخل كل مؤمن كل الجنات، ولكن المعنى والمقصود أن يدخل كل منهم جنته على حسب الأعمال التى اكتسبها والمنزلة التى وصل إليها [1] .

ومن المهم أن نعلم أن صاحب الجنة عالية المنزلة لن يتلقى حسدا من صاحب الجنة متوسطة المنزلة. وصاحب الجنة الدنيا لن يحسد من هو أعلى منه، وكذلك لن يزهو صاحب الجنة عالية المنزلة على غيره. وكل واحد منهم يفرح بمكانة الآخر. مثلما يحدث أحيانا فى الدنيا حين يتفوق إنسان فى دراسته فقد نجد من هو أقل منه درجة يفرح له بصفاء نفس، وكذلك لا يزهو متفوق بمكانته على الأدنى منه، وإذا كان ذلك هو مايحدث فى الدنيا، فما بالنا بالآخرة؟ حيث يقول الحق سبحانه وتعالى:

﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ (٤٧) ﴾
[الحجر]

أى :أن كلا من أهل الجنة يفرح بمنزلته، ويفرح بمنزلة الأعلى منه، لأنه سينال من فيوضات الخير، التى عند الأعلى منزلة. عندما يأتى لزيارته وقد قالوا فى قول الحق سبحانه وتعالى:

﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ (٤٦) ﴾ [الرحمن]

إن كل من علت منزلته فى الجنة له جنة خاصة به، وجنة أخرى ليتكرم بها على من هم دونه، وكأنها مضيفة لمن يحبهم، إذن ففى الآخرة يفرح أهل الجنة

(١) عن عبدالله بن عمرو عن النبى ﷺ قال: «يقال لصاحب القرآن: اقرأ وارتق ورتل كما كنت ترتل فى الدنيا، فإن منزلتك عند آخر آية تقرأبها» أخرجه أحمد فى مسنده (٢/ ١٩٢) والترمذى (٢٩١٤) وقال: حسن صحيح ، وأبو داود فى سننه (١٤٦٤).

بمن هم أعلى منهم ، لأنهم سينالون منهم خيرا.

وفى الدنيا إذا أراد إنسان أن ينال نعم كل الخلق، فلابد أن يفرح بالنعمة عند صاحبها؛ لأنه حين يفرح بالنعمة عند صاحبها أتت إليه واستفاد منها، وعلينا أن نوقن بأن النعمة تعشق صاحبها أكثر من عشق صاحبها لها، لأنها تعرف أن الله قد أرسلها إليه ، ولذلك يقول الحق تبارك وتعالى:

﴿تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾ [إبراهيم: ٢٥]

وأنت حين تبذر بذرة الشجرة، تعطيك الشجرة الثمار، وهى التى تعطيك نتاجها. ولست أنت الذى تنتزعه منها، ولذلك نقول دائما: إن الرزق يعرف عنوانك جيدا ولكنك لاتعرف مكانه أبدا، فأنت تبحث عن الرزق فى كل مكان وقد لاتجده. ولكن ما قسمه الله لك من الرزق تجده يسعى إليك ويأتيك حتما.

وأهل الجنة لا يعرفون الحقد ولا الحسد ولا الغل. وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأصحابه وهم جالسون معه ذات يوم: « يطلع عليكم الآن رجل من أهل الجنة».

ودخل الرجل وعرفه الصحابة، فأرادوا أن يعرفوا ماذا يعمله هذا الصحابى حتى يستحق بشارة رسول الله صلى الله عليه وسلم بالجنة. قالوا له : ونحن نريد أن نعرف ماذا تفعل لنكون معك. فقال الرجل: إنى لأصلى كما تصلون وأصوم كما تصومون وأزكى كما تزكون. ولكنى أبيت وليس فى قلبى غل لأحد. فذهبوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقالوا له: لقد قال الرجل كذا وكذا. فقال صلى الله عليه وسلم: «وهل فضلت الجنة على الدنيا إلا بهذا » (١)

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (٣/ ١٦٦) وابن المبارك فى الزهد (٦٩٤) وعزاه الهيثمى فى المجمع (٨/ ٧٩) لأحمد والبزار بنحوه. وقال «رجال أحمد رجال الصحيح». وليس فيه «وهل فضلت الجنة على الدنيا إلا بهذا». وقد تتبعه عبدالله بن عمرو ليستطلع عمله ثم قال له: لم أرك تعمل كثير عمل فما الذى بلغ بك ما قال رسول الله ﷺ فقال: ما هو إلا ما رأيت... غير أنى لا أجد فى نفسى لأحد من المسلمين غشا ولا أحسد أحدا على خير أعطاه الله إياه. فقال عبدالله: هذه التى بلغت بك وهى التى لانطيق.

فالله سبحانه وتعالى يقول فيها :

﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ ﴾ [الحجر : ٤٧]

ويقول الحق سبحانه وتعالى بعد ذلك :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾

والولى هو الذى يليك وينجز ماتحبه ، وتلجأ إليه فى كل أمر، وتأخذ منه النصيحة ، كما أنه القادر أن يجيرك حين تفزع إليه، ويكون دائما بمثابة المعين لك ، والقريب الذى يسمع منك، إذا استغثت يغيثك وينصرك ، ويكون معك فى كل أمورك .إن قارنا بين طلب المخلوق وطلب الخالق . والحق سبحانه وتعالى يوضح لنا هنا: إن أردتم أن يكون بناء الإسلام قويا لا خلل فيه، فإياكم أن يكون انتماؤكم غير انتماء الإيمان، فهو فوق انتماء النسب والحسب وغير ذلك، وإن قارنا بين طلب المخلوق وطلب الخالق، فما يطلبه الخالق فوق مايطلبه المخلوق ؛ لأنك إن أغضبت المخلوق فى رضا الخالق تكون أنت الفائز، ويقذف الله فى قلب كل من حولك رضاهم عنك ،وسيقال عنك صاحب مبدأ وضمير، ولاترضى أن تغضب الله ليرضى عنك أحد. وإن أسخطت الله لإرضاء مخلوق مهما كان، تجد أن الله يجعل هذا المخلوق يسخط عليك ويحتقرك[1] . فإن شهدت زورا لصالح بشر. يعرف عنك هذا الذى شهدت زوراً فى حقه أنك شاهد زور فلا يأمنك، وإن جئت بالصدفة لتشهد

(١) عن عائشة رضى الله عنها أن رسول الله ﷺ قال: «من التمس رضا الله بسخط الناس رضى الله عنه وأرضى الناس عنه، ومن التمس رضا الناس بسخط الله سخط الله عليه وأسخط الناس عليه» أخرجه ابن حبان فى صحيحه (١٥٤٢)، وأخرجه الترمذى فى سننه (٢٤١٤) من وصية أرسلتها لمعاوية.

عنده فهو لا يقبل شهادتك ويحتقر كلامك.

ولذلك قال الحكماء: شاهد الزور قد يرفع رأسك على الخصم بشهادته، ولكنك تدوس بقدمك على كرامته لأنه سقط فى نظرك.

والانتماء إذن هو انتماء لله، فإن صادفك قريب يريد منك أن تفعل مايغضب الله فلا تطعه، ولكن لا تكن فظا معه. وخصوصا مع الوالدين لأن الله سبحانه وتعالى يقول عنهما:

﴿ وَإِن جَاهَدَاكَ عَلَىٰ أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا ﴾ [لقمان: ١٥]

والحق سبحانه وتعالى يقول هنا:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ ﴾ [التوبة: ٢٣]

إذن فالذى يربط كل شىء هو الكفر أو الإيمان. وقد أعطانا صحابة رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ المثل الخالد. فقد كان سيدنا مصعب بن عمير أكثر الفتيان تدللا فى مكة، وكانت حياته فى مكة قبل إسلامه غاية فى الترف، وكان يرفل[(١)] فى الثياب الفاخرة، فلما هاجر إلى المدينة عاش ظروف الفقر المادى الصعب ، لدرجة أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ رآه فى الطريق ساترا عورته بجلد شاة فلفت النبى عليه الصلاة والسلام نظر الصحابة إلى حالته هذه وكيف فعل الإيمان بمصعب حيث فضل الإيمان على نعيم الدنيا كلها . لقد رأى مصعب ـ رضى الله عنه ـ أن شرفه بالانتماء إلى الإسلام أكبر من فاخر الثياب ، وترف العيش[(٢)] وانطبق عليه قول الحق تبارك وتعالى:

(١) يرفل : يتبختر فى مشيته ويجرُّ ذيله .

(٢) عن عمر بن الخطاب قال : نظر النبى ﷺ إلى مصعب بن عمير مقبلا وعليه إهاب (جلد) كبش قد تنطَّق به فقال ﷺ: «انظروا إلى هذا الرجل الذى قد نوَّر الله قلبه ، لقد رأيته بين أبوين يغذوانه بأطيب الطعام والشراب ، فدعاه حب الله ورسوله إلى ما ترون » أخرجه أبو نعيم فى حلية الأولياء (١/ ١٠٨) قال العراقى فى تخريجه لأحاديث الإحياء (٤/ ٢٩٥) إسناده حسن .

﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ اللَّهِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ (٢٠) يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ (٢١) خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ (٢٢)﴾ [التوبة]

وأعطانا سيدنا مصعب ومن معه المثل العظيم فى الانتماء الإيمانى، والمجاهدة فى سبيل الله بالمال والنفس، وكيف نجعل اختيارنا مع منهج الله، هذا المنهج الذى يقيد الإنسان فيما له اختيار فيه. فالإنسان مقهور فى أشياء ومخير فى أشياء.

ونعلم أن التكليف لايأتى فى الأمور التى نحن مقهورون عليها. وإنما يأتى فيما لنا فيه اختيار. فإذا ما كان لنا اختيار، فلنراع أن نختار بين البدائل فى إطار منهج الله تعالى، ولانخرج بعيدا عن هذا الإطار. وكان المسلمون الأوائل يضحون بالبيت والمال والولد، ويهاجرون فى سبيل الله. واستقبلوا كل هذه التضحيات الصعبة بصدور مؤمنة، وصبر واحتمال شديدين ؛ لأنهم وثقوا فى البشارة من الله سبحانه وتعالى بأن لهم الجنة والرضوان ،والنعيم المقيم؛ خالدين فيه لايفارقهم ولايفارقونه. وبهذا أقيم بناء الإسلام.

وبعد أن بيَّن لنا الحق أسس الانتماء للدين، وجزاء هذا الانتماء، حذرنا أن ننحرف عنه لنرضى أبا أو إخوة أو أقارب ،فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [التوبة : ٢٣]

ويريدنا الله سبحانه وتعالى أن نعرف أن الانتماء لله لايعلو عليه شىء، فإذا مِلْنَا عن الحق لنرضى أقارب ،أو لنحتفظ بمال أو منصب ، فذلك ظلم للنفس؛ لأن جزاء الحق ونعيمه أكبر، فلا ينصرن أحد الباطل ، ولا يجعل

أحدنا الإيمان خادما لكفار لايؤمنون بالله. ويوضح الحق سبحانه وتعالى هذه الصورة بقوله تعالى: ﴿إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الإِيمَانِ﴾، وكلمة «استحب» أي: طلب الحب ومثلها مثل «استخرج» أي: طلب إخراج الشيء. وإذا قلنا «استجاب الله» معناها : أجاب.

إذن فـ«استحب» معناها: أحب، ولكن «استحب» فيها افتعال. و«أحب» فيها اندفاع بلا افتعال.

وقول الحق تبارك وتعالى ﴿إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الإِيمَانِ﴾ يدل على أن الكفر مخالف للفطرة الإيمانية للإنسان،لأن الإنسان بفطرته مؤمن محب للإيمان، فإن حاول أن يحب غير الإيمان، لابد أن يتكلف ذلك؛ وأن يفتعله لأنه غير مفطور عليه ؛ وليس من طبيعته. ولذلك يقول القرآن الكريم:

﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٨]

وهذا التساؤل والتعجب يوضح لنا أن الذين يحكّمون المنطق والفكر والعقل يصعب عليهم الكفر بالله، لماذا؟ ؛ لأن الكون وجد أولا ، ثم وجد الإنسان، فكان من الواجب حين نأتي إلى كون لم نصنع فيه شيئا أن نسأل: من الذى أوجده؟ وكان من الطبعي أن يبحث العقل عن الموجد، وخصوصا أن في الكون أشياء ،لا قدرة للبشر على إيجادها؛ كالشمس، والأرض ،والماء، والهواء، والنبات، والحيوان. وكلها تمثل الاستقبال الجامع لمقومات حياتك.

كان من الطبعي ـ إذن ـ أن نسأل: من الذى أوجد هذا الكون؟. خصوصاً أننا نفتش عمن اخترع لنا اختراعا بسيطا مثل :مصباح الكهرباء وندرس تاريخ حياته، وكيفية اكتشافه، لمجرد أنه أضاف إلى حياتنا اختراعا استفدنا منه، فما بالنا بمن خلق هذا الكون؟. ولقد رحمنا سبحانه وتعالى من ضلالات الحيرة، فأرسل لنا رسولا برحمة منه ؛لينبهنا ويقول لنا: إن هذا الكون

من خلق الله القادر العظيم. لماذا إذن لانصدق الرسول ، ونتبع المنهج الذى أنزل إلينا؟

ولقد ضربنا مثلاً ــ ولله المثل الأعلى ـ بشخص سقطت به الطائرة وسط الصحراء وبقى حيا، لكن لا ماء ولا طعام، ثم أخذته سِنَةٌ من النوم واستيقظ ليجد الطعام والشراب ،وكل مايحتاج إليه حوله؛ ألا يفكر قبل أن يأكل من كل هذا : من الذى جاء به؟. وأنت أيها الإنسان قد جئت إلى هذا الكون العظيم وقد أُعِدَّ إعداداً مثالياً لحياتك، وهو إعداد فوق القدرة البشرية، فكان يجب أن تفكر من الذى أوجد هذا الكون؟.

إذن: فالإيمان ضرورة فطرية ؛وضرورة عقلية أيضا، وإن ابتعدت عن الإيمان فهذا يحتاج إلى تكلف؛ لأنك تبتعد عن منطق الفطرة والعقل؛ لتحقق شهوات نفسك. وما دمت قد اتبعت هواك وخضعت لشهوات النفس، فهذا لون من التكلف الذى يصيب ملكاتك بالخلل، وعقلك بالخبل ، فحب الكفر لا يكون عاطفياً ،أو فطرياً ،كما لا يكون منسجما مع العقل السليم ، بل هو حب متكلَّف. فالذى يفعل حلالاً يحيا وملكاته كلها منسجمة، والذى يفعل حراما يعيش وملكاته مضطربة[1]، والمثال: حين ينظر الرجل إلى زوجته ، فهو ينظر إلى حلاله ويشعر أن ملكاته منسجمة، ولكن إن نظر إلى امرأة أخرى ، فهو .. يشعر باضطراب الملكات. فالسلوك المتفق مع الإيمان سلوك سوى .أما السلوك الخارج عن منهج الإيمان فهو الذى يحتاج إلى تكلف، وهذا التكلف يعارض الطباع الإنسانية. بينما توابع الإيمان من الاستقامة لا تكلف شيئا، فالمؤمن يكون مستقيماً فلا يرتشى، ولا يسرق، ولا يدخل بنفسه إلى مزالق الهوى أو الشهوة، ويحيا حياة طيبة، فإن فتح «دولابه» الخاص، وأخذ منه شيئا فهو

(١) عن النواس بن سمعان الأنصارى قال : سألت رسول الله ﷺ عن البر والإثم ؟ فقال : «البر حُسْن الخلق ، والإثم ما حاك فى صدرك ، وكرهت أن يطلع عليه الناس » . أخرجه مسلم (٢٥٥٣) والترمذى (٢٣٨٩) وقال : حسن صحيح ، وأحمد فى مسنده (٤/ ١٨٢) .

يأخذ ما يريد بهدوء واطمئنان ، لكن المنحرف من يدخل إلى غير حجرته ليأخذ شيئا من «دولاب» ما، حتى ولو كان «دولاب» الأب النائم، لذلك نجده يسير على أطراف أصابعه متلصصا ليفتح «دولاب» أبيه.

إذن: فالاستقامة لاتحتاج إلى تكلف، ولكن الانحراف هو الذى يحتاج إلى تكلف، ولذلك قال الله سبحانه: ﴿اسْتَحَبُّوا﴾ ولم يقل؛ «أحبوا»، لأن الحب أمر فطرى، فالإنسان ـ مثلا ـ يحب ابنه حبا فطرياً عاطفياً، والحب العاطفى لايقنن. فأنت لا تستطيع أن تقول: سأحب فلانًا وسأكره فلاناً ؛ لأن العاطفة لاتأتى بهذه الطريقة ؛ لذلك أنت تحب ابنك عاطفياً ،حتى و إن كان فاشلاً فى دراسته. لكنك تحب ابن عدوك عقليا إن كان متفوقاً ، إذن فالحب العقلى هو الذى يقنن له.

وكذلك أنت تكره الدواء المر بعاطفتك، لكنك تحبه بعقلك إن كان فيه شفاؤك، فتبحث عنه ، وتدفع المال من أجله، وتحرص على أن تتناوله، وكلنا نعلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «لا يؤمن أحدكم حتى أكون عنده أحب إليه من نفسه»[(١)]

ووقف عند هذه سيدنا عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ وقال: يا رسول الله: أنا أحبك عن مالى وأحبك عن ولدى، ولكن كيف أحبك عن نفسى؟ فكرر رسول الله صلى الله عليه وسلم الحديث قائلا : «لايؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه».

وكررها عليه الصلاة والسلام ثلاثا، فعلم عمر بن الخطاب رضى الله عنه أن هذا تكليف. والتكليف لا يأتى إلا بالحب العقلى الذى يمكن أن يقنن. وقد يتسامى المؤمن فى الحب لرسول الله صلى الله عليه وسلم ليصير حباً عقلياً

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه (٦٦٣٢) وأحمد فى مسنده (٤/ ٢٣٣) وفى إسناد أحمد بن لهيعة ولكن تابعه حيوة عن زهرة بن معبد . وباقى الحديث هنا مروى بالمعنى .

وعاطفياً. ولكن الحب العقلى هو مناط التكليف، أما الحب العاطفى فلا يكلف به. ولم يقنن الحق سبحانه وتعالى لانفعالات العواطف، لأنه سبحانه لايمنع العواطف أن تنفعل انفعالاتها الطبيعية، فأنت تحب من يسدى إليك معروفاً، وهناك من تحبه دون أن تعرف السبب. وهناك من تبغضه دون أن يكون قد عاداك أو آذاك [1] ، وكل ذلك متروك لك، ولكن الله سبحانه وتعالى نهى أن يؤدى ذلك إلى عدوان على الحق، فقال سبحانه وتعالى:

﴿وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلاَّ تَعْدِلُوا﴾ [المائدة: ٨]

أى :لا يدفعكم كره قوم على أن تخرجوا عن طريق الحق وتظلموهم، فإن كرهتموهم فتمسكوا بالعدل معهم.

إذن فالله سبحانه وتعالى لم ينه عن الحب أو الكره ؛ ولكنه نهانا عن أن نظلم من نكره أو نجامل من نحب على حساب الحق والعدل.

ويعطينا سيدنا عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ صورة حية لهذا ؛ فقد قتل أبو مريم الحنفى زيد بن الخطاب شقيق سيدنا عمر فى معركة اليمامة، ثم دخل فى الإسلام؛ فكان كلما مر أمام سيدنا عمر قال له: إلـو وجهك بعيدا عني ، فإنى لاأحبك. فقال له أبو مريم الحنفى: أو عدم حبك لى يمنعنى حقاً من حقوقى.

قال: لا. فقال الرجل: إنما يبكى على الحب النساء.

والحق سبحانه وتعالى حين قال: ﴿إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الإِيمَانِ﴾ إنما يريد أن يلفتنا إلى أنهم عارضوا فطرتهم وعقولهم؛ ولذلك لا نجعل انتماءنا لهم فوق انتمائنا لله، فالولاء لله فوق كل حق ؛ حتى لو كان حق الأبوة ، صحيح أن الأب سبب وجودك، ولكنه سبحانه وتعالى خلق أباك الأول آدم من عدم ، فلا تجعل الخلق الفرعى يطغى على الخلق الأصلى. ولذلك يذيل الحق هذه

(١) عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال : «الأرواح جنود مجندة ، فما تعارف منها ائتلف ، وما تناكر منها اختلف » . أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٦٣٨) وأحمد فى مسنده (٢/ ٢٩٥ ، ٥٢٧ ، ٥٣٩) وأبو داود (٤٨٣٤) .

الآيـة الكريمـــة بقـــوله: ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنكُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ لأنهم نقلـوا الحق من الله سـبحانه وتعـالى إلى الخـلق، ولأنهم ظلمـوا أنفسهم فحرمـوها مـن الجزاء فى الآخرة ليحققـوا نفعا عاجـلا فى الدنيـا. ولذلـك يقول الحق سبحانه وتعالى:

﴿ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٥٧) ﴾ [البقرة: ٥٧]

لأن أحدا لايستطيع أن يظلم الله سبحانـه وتعالى ، والذى يتمرد على الإيمان بعد أن يسمع الدعـوة إليه ولا يؤمن، ومن يأمره الحق بالطـاعة فيعصى، فهذا تمرد على الإيمان ، وإن كنت من المتمـردين وجاءك الله بمرض؛ فهـل تقدر على دفع المرض ولا تمرض؟. وإذا جـاءك الله بالموت. أتستطيع أن تتمـرد على الموت وتبعـده عنك فـلا تموت؟. إذن: هنـاك أقـدار لاتستطيع التمـرد عليهـا ، وأنت متمرد - فقط - فيما لك فيه اختيار .

وبعد ذلك أراد الحق سبحانه وتعالى أن يخاطبهم خطاباً صريحاً فقال:

﴿ قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ ۗ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ (٢٤) ﴾

والخطاب هنا لرسول الله صلى الله عليه وسلم ليبلغه للمؤمنين. وقد جاء سبحانه وتعالى فى هذه الآية الكريمة بمراحل القرابة ، فذكر أولاً صلة النسب من آباء وأبناء وإخوة، ثم الزواج، وهو وسيلة التكاثر، ثم الأهل والعشيرة ،ثم الأموال التى نملكها فعلاً ، ثم الأموال التى نريد أن نكسبها، ثم المساكن التى نرضى بها، وبعد ذلك ذكر التجارة التى تزيد من المال. وفرّق الله سبحانه بين الأموال التى فى حوزتنا وبين التجارة؛ لأن التجارة قد تأتى لنا بأموال فوق الأموال، والإنسان لا يحصل على سكن إلا إذا كان عنده فائض من المال. ويذكرنا الحق سبحانه هنا إن كانت أى مسألة من هذه الأشياء ، وهى زينة الحياة الدنيا أحب إليكم من الله ورسوله والجهاد فى سبيل الله ﴿فَتَرَبَّصُوا﴾ أى انتظروا حتى يأتيكم أمر الله، وحينئذ ستعرفون القيمة الحقيقية للدنيا وقيمة ماعند الله تعالى من رضاء ونعيم.

ولهذه الآية الكريمة أسباب نزول ، وهو أن رسول الله صلى الله عليه وسلم عندما أُمِرَ بالهجرة من مكة إلى المدينة ، أمر المسلمين بالهجرة ، فتركوا أموالهم التى اكتسبوها بمكة وتجاراتهم ومساكنهم ،وآبائهم وأبنائهم ،وإخوانهم وأزواجهم وعشائرهم ،التى تستطيع حمايتهم ، تركوا كل هذا وهاجروا لأرض جديدة .

ولكن من المسلمين من ركنوا للدنيا فبقوا بجوار أموالهم وأزواجهم وأبنائهم المشركين ، وكانت الواحدة من النساء المشركات تتعلق بقدمى زوجها المسلم الذى يريد الهجرة حتى لا يتركها فكان قلبه يرقُّ لها ، ومنهم من كان يخشى ضياع ماله وكساد تجارته ،التى بينه وبين المشركين ، فنزلت هذه الآية [1].

إن الحق سبحانه وتعالى أراد أن يوضح قيمة الانتماء الإيمانى ويدرب المؤمنين عليه. فقد كان المسلم لايتم إيمانه حتى يهاجر، ويصارم[2] أهله

(١) انظر تفسير القرطبى (٤ / ٣٠٢١) طبعة دار الغد ، وأسباب النزول للإمام السيوطى (ص ٩٢ ، ٩٣) .
(٢) يصارم أهله : يقاطعهم قطعاً بائناً .

وأقاربه ويقاطعهم، فشق ذلك عليهم. وقالوا: يارسول الله إن نحن اعتزلنا من خالفنا فى ديننا قطعنا آباءنا وأبناءنا وأزواجنا وأقاربنا، وخفنا على أموالنا وتجارتنا من الفساد، وخفنا على مساكننا أن تخرب ، وبذلك نضيع ، فأنزل الله تعالى هذه الآية، وكأنها تأمرهم بأن كسب الإيمان أعلى من أى كسب آخر، فأنزل الحق سبحانه وتعالى الآية الكريمة:

﴿ قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ (٢٤) ﴾ [التوبة]

ولما نزلت هذه الآية الكريمة أخذها الصحابة مأخذ الجد وهاجروا ؛ وقاطعوا آباءهم وأبناءهم ، حتى إن الواحد منهم كان يلقى أباه أو ابنه فلا يكلمه و،لا يدخله بيته ،ولا ينزله فى منزله إن لقيه ، ولا ينفق عليه ، إلى أن نزلت الآية الكريمة:

﴿ وَإِن جَاهَدَاكَ عَلَىٰ أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا ﴾ [لقمان : ١٥]

أى :أن المعروف معهم يقتصر فقط فى المعاملة وفى الإنفاق على المحتاج . أما الطاعة لهم فيما يغضب الله فهى محرمة. وحاول بعض المستشرقين أن يطعن فى القرآن، فمنهم من قال : إن هناك تعارضاً بين آيات القرآن الكريم، فالآيتان اللتان ذكرناهما ؛ الأولى تطلب مقاطعة الآباء والأبناء إن استحبوا الكفر على الإيمان، والآية الثانية تطلب مصاحبتهم بالمعروف أو عدم القطيعة، وآية ثالثة تقول:

﴿لا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾ [المجادلة: ٢٢]

ولم يفطن هؤلاء إلى أن هناك فارقاً بين الود والمعروف ، فالود هو عمل القلب، فأنت تحب بقلبك ، وتود بقلبك ، ولكن المعروف ليس من عمل القلب لأنك قد تصنع معروفاً فى إنسان لا تعرفه، وقد تصنع معروفاً فى عدوك حين تجده فى مأزق، ولكنك لا تحبه ولا توده.

إذن : فالمنهى عنه أن يكون بينك وبين من يحادون الله ورسوله حب ومودة، أما المعروف فليس منهيا عنه؛ لأن الله يريد للنفس الإيمانية أن تعترف بفضل الأبوة، فإن وجدت أباك وهو غير مؤمن فى مأزق فاصنع معه معروفاً وساعده، لكن عليك ألا تطيعه فيما يغضب الله؛ لأن الحق سبحانه وتعالى يريد أن يربى فى النفس الإيمانية أن تحترم من له فضل عليها. والأب والأم من أسباب الوجود الفرعى فى الحياة، لذلك جاء الأمر بمصاحبتهما بالمعروف فى الدنيا، شرط ألا نقبل منهما دعوتهما للكفر إن كانا من أهل الكفر، لأن إيمانك بالله لابد أن يكون هو الأقوى. ولذلك يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان : أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لايحبه إلا لله ،و أن يكره أن يعود فى الكفر بعد أن أنقذه الله منه كما يكره أن يقذف فى النار».[1]

وذلك حتى لا يكون مقياس الحب هو النسب أو القربى، وإنما يكون القرب من الله سبب الحب، والبعد عن الله سبب الكره. فقضية الإيمان تَجُبُّ قضية العاطفة. ففى معركة بدر كان سيدنا أبوبكر الصديق رضى الله عنه مع سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم، أما ابنه فلم يكن قد أسلم بعد وكان مع الكفار، فلما أسلم ابن أبى بكر وآمن؛ قال لأبيه: لقد رأيتك يوم بدر

(١) متفق عليه . أخرجه البخارى (١٦) ومسلم (٤٣) عن أنس بن مالك .

فلويت وجهى عنك حتى لا أقتلك. فرد سيدنا أبو بكر رضى الله عنه: لو أنى رأيتُكَ لقتلتُكَ. وهذا منطقى مع الإيمان لأن الموازنة النفسية اقتضت أن يقارن ابن أبى بكر بين أبيه وبين صنم يعبده ؛ فرجحت كفة أبيه، ولكن أبا بكر حين رأى ابنه قارن بين ربه وابنه فرجحت كفة ربه.

وإذا كان ذلك عن القرابة ، وكيف يَجُبُّ الإيمان العاطفة، فماذا عن المال؟ يتابع المولى سبحانه وتعالى: ﴿وَأَمْوالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا﴾ أى: أخذتموها بمشقة، وهى مأخوذة من «القرف» وهى القشر، وأنت إن أردت إزالة القشر عن حبة نبات ما، قد تجد شيئا من المشقة ؛ لأن هناك التصاقا بين القشرة والحبة، والحق هنا يقول: ﴿وَأَمْوالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا﴾ أى: أخذتموها بجهد ومشقة، وهو غير المال الموروث الذى لم يتعب فيه صاحبه، وإنما ورثه عن غيره، وفى هذه الحالة قد يكون أمره هيناً على صاحبه. أما المال الذى كسبه الإنسان بعرق جبينه وكدِّه[1] فصاحبه أكثر حرصاً عليه من المال الموروث. ويقال :«فلان اقترف كذا»، أى: أنه قام بجهد حتى حصل عليه، ويقال: «اقترف الكذب» و«اقترف السرقة»، بمعنى أنه قد بذل جهدًا ليكذب، أو بذل جهدًا ليسرق، أى: قام بعملية فيها مجهود.

ثم يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللهُ بِأَمْرِهِ واللهُ لا يَهْدِي القَومَ الفَاسِقِينَ﴾ وسبحانه هنا يوضح لهم: انتظروا أمر الله الذى سوف يأتى، لأنه سبحانه لا يهدى فاسقاً خرج عن الإيمان، ولا يهدى من جعلوا حبهم للعلاقات الدنيوية فوق حب الله فخرجوا عن مشيئة هداية الله تعالى، فسبحانه لايهديهم كما لايهدى الظالمين أو الكافرين؛ لأن هؤلاء هم من قدموا الظلم والكفر والفسق، فكان ذلك سببا فى أن الله لم يدخلهم فى مشيئة هداية المعونة على الإيمان، أما هداية الدلالة فقد قدمها لهم.

(١) الكدّ : الشدة والتعب فى تحصيل الشىء .

ثم أراد الحق سبحانه وتعالى أن يبعث الطمأنينة الإيمانية فى نفوس المؤمنين، فيوضح لهم : إن كنتم تريدون بالآباء والأبناء والعشيرة والأقربين والمال قوة، فاعلموا أن قوة المؤمن من ربه، وإياك أن تنظر إلى ولى آخر غير الله ؛ لأن ولاية البشر عرضة للتغير والتبدل، حيث إن الإنسان حدث يتقلب بين الأغيار، فالغنى فيها قد يصبح فقيرا، والسليم قد يصبح مريضاً، والقوى قد يصير ضعيفاً ، ولكن الولاية الدائمة إنما تكون من قادر قاهر لايتغير ،فإذا كان الله وليك فهو القادر دائمًا ، والقاهر دائمًا ، والغالب دائمًا، والموجود دائماً ، والناصر دائماً ، ولكن إذا كانت الولاية من إنسان لإنسان فالأغيار فى الدنيا تجعل الصديق ينقلب عدواً ، والمعين يصبح ضعيفاً لايملك شيئا، والموجود يصبح لاوجود له بالموت ، إذن : فلابد أن تجعل ولايتك مع الله سبحانه وتعالى : لأنه هو الدائم الباقي. ولهذا يعلِّم المولى ـ عز وجل ـ عبده المؤمن أن يكون دائماً يقظاً، فطناً، لبيباً، فيقول سبحانه وتعالى:

﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لا يَمُوتُ ﴾ [الفرقان : ٥٨]

أى : لا تتوكل على من قد تصبح غداً فتجده ميتاً، ولكن توكل على الحى الموجود دائما ، العزيز الذى لا يقهر، القوى الذى لا يغلب. وينبه الحق سبحانه وتعالى المؤمنين: إن كنتم تخشون حين نعزلكم عن مجتمع الكفر لما فيه من عزوة كاذبة بالآباء والأبناء والإخوان والأقارب والمال، فاعلموا أن الله هو الذى ينصر، وهو الولى، ولكن الكافرين لا مولى لهم؛ لأنهم يتخذون موالى من أغيار، والأغيار لا ثقة فيها؛ لذلك يقال: إذا وصل الإنسان إلى القمة فهذه نهاية الكمال، لأنه ما دام قد وصل إلى القمة وكل شىء فى الدنيا يتغير، فلابد أن يتغير هو .ويقول القائل:

إذاَ تَمَّ شىءٌ بَدَأ نقصُه ترقَّبْ زوالاً إذَا قِيل تَمّ

لأن كل شيء ابن أغيار لابد أن ينزل إلى أسفل، ويوضح الحق سبحانه وتعالى للمؤمنين أنه إذا كان قد طلب منهم أن يعزلوا أنفسهم عن مجتمع الكفر؛ فأفقدهم بذلك قوة ونصيراً، فهم فى مَنَعة أكبر؛ لأنهم حينئذ يكونون مع الله، والله هو النصير، وليس هذا كلاماً نظرياً، وإنما هو كلام مؤكد بالوقائع التى شهدتموها، وسبحانه وتعالى يقول بعد ذلك:

﴿ لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ﴾

وقوله: ﴿ لقَدْ نَصركُمُ الله فى مَواطنَ كثيرة ﴾ يلفتنا إلى أن النصر يكون من عند الله وحده، والدليل على أن النَصر من عند الله أنه سبحانه قد نصر رسوله والذين معه فى مواطن كثيرة، و ﴿ مَواطنَ ﴾ جمع « موطن » والموطن هو ما استوطنت فيه . وكل الناس مستوطنون فى الأرض، وكل جماعة منا تُحيز مكاناً من الأرض ليكون وطناً لها، والوطن مكان محدد نعيش فيه من الوطن العام الذى هو الأرض؛ لأن الأرض موطن البشرية كلها، ولكن الناس موزعون عليها، وكل جماعة منهم تحيا فى حيز تروح عليه وتغدو إليه وتقيم فيه .

والله سبحانه هنا يقول: ﴿ لقَدْ نَصركُمُ الله فى مَواطنَ كثيرة ﴾، وما دام الحديث عن النصر، يكون المعنى: إن الحق سبحانه قد نصركم فى مواطن الحرب أى مواقعها، مثل يوم بدر، ويوم الحديبية، ويوم بنى النضير، ويوم الأحزاب، ويوم مكة، وكل هذه كانت مواقع نصر من الله للمسلمين، ولكنه

في هذه الآية يخص يوماً واحداً بالذكر بعد الكلام عن المواطن الكثيرة، فبعد أن تحدث إجمالاً عن المعارك الكثيرة يقول: ﴿ وَيَوْمَ حُنَينٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ﴾ إذن: فكثرة عدد المؤمنين في يوم حنين كان ظرفاً خاصاً، أما المواطن الأخرى، مثل يوم بدر فقد كانوا قلة، ويوم فتح مكة كانوا كثرة، ولكنهم لم يعجبوا؛ ولم يختالوا بذلك، إذن: ففي يوم حنين اجتمعت لهم الكثرة مع الإعجاب، وبذلك يكون يوم حنين له مزية، فهو يوم خاص بعد الحديث العام.

﴿ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ ﴾ هذا الإعجاب ظرف ممدود على اليوم نفسه، إذن فيوم حنين ليس معطوفاً على ﴿ مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ ﴾ ولكنه جملة مستقلة بنفسها؛ لأن الكثرة والإعجاب بالكثرة لم تكن في بقية المواطن، وهذه دقة في الأداء اللغوي تتطلب بحثاً لغوياً. فكلمة ﴿ مَوَاطِنَ ﴾ هي ظرف مكان، و ﴿يَوْمَ حُنَيْنٍ ﴾ هي ظرف زمان، فكيف جاز أن نعطف ظرف الزمان على ظرف المكان؟

ونقول: هذا هو ما يسميه العرب « احتباك »؛ لأن كل حدث مثل « أكل » و « شرب » و « ضرب » و « ذاكر »؛ كل حدث لابد له من زمان ولابد له من مكان، فإذا قلت: أكلت، نقول: متى؟ في الصبح، أو في الظهر، أو في العصر، أو في العشاء ؟ وأين ؟ في البيت، أو في الفندق، أو في المطعم، أو في الشارع.

إذن: فلابد لكل حدث من ظرف زمان وظرف مكان، فإذا راعيت ذلك أخذت الظرفية المطلقة؛ ظرفية مكان حدوث الفعل، وظرفية زمان حدوث الفعل. فإذا قلت: أكلت الساعة الثالثة ولم أسألك أين تم الأكل؟ أو إذا قلت: أكلت في البيت ولم أسألك عن موعد الأكل ظهراً أو عصراً أو ليلاً، يكون الحدث غير كامل الظرفية.

ومعلوم أن الزمان والمكان يشتركان في الظرفية، ولكنهما يختلفان، فالمكان

ظرف ثابت لا يتغير. والزمان دائم التغير، فهناك الصبح والظهر والعصر والمغرب والعشاء. والزمان يدور، هناك ماض وحاضر ومستقبل، وهكذا يشترك الزمان والمكان فى الظرفية، ولكن الزمان ظرف متغير، أما المكان فهو ظرف ثابت.

وجاءت الآية هنا بالاثنين، فـ ﴿ يَوْمَ حُنَيْنٍ ﴾ هو زمان ومكان لحدث عظيم، وأخذت الآية ظرف المكان فى ﴿ مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ ﴾ وظرف الزمان فى ﴿ يَوْمَ حُنَيْنٍ ﴾ فإذا قيل: لم يحضر ظرف الزمان والمكان فى كل واحدة، نقول: لا، لقد حضر ظرف المكان فى ناحية وظرف الزمان فى ناحية ثانية، وهذا يسمونه - كما قلنا - « احتباك ». وقد حذف من الأول ما يدل عليه الثانى، وحذف من الثانى ما يدل عليه الأول، فكان المعنى: لقد نصركم الله يوم مواطن كذا وكذا وكذا. فإذا عطفت عليها يوم حنين يكون المعنى «ومواطن يوم حنين »، أى: جاء بالاثنين هنا. ولكن شاء الله سبحانه وتعالى ألا يكون هناك تكرار، فأحضر واحدة هنا وواحدة هناك، وهذا يظهر واضحاً فى قوله تعالى:

﴿ قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ ﴾

[آل عمران: ١٣]

فما دامت الأخرى ﴿ كافرةٌ ﴾ تكون الأولى « مؤمنة »، ولكن حذفت «مؤمنة » لأن ﴿ كافرةٌ ﴾ تدل عليها، وما دامت الأولى المؤمنة تقاتل فى سبيل الله، فالفئة الكافرة تقاتل فى سبيل الشيطان. وحذفت تقاتل فى سبيل الشيطان؛ لأن ﴿ تُقَاتِلُ فى سبيلِ الله ﴾ دلَّتْ عليها. وذلك حتى لا يحدث تكرار. ونجد أن المؤمن الذى يستمع إلى كلام الله تعالى لابد أن يكون عنده عمق فهم، وأن يكون كله آذاناً صاغية حتى يعرف ويتنبه إلى أنه حذف من واحدة ما يدل على الثانية. إذن: فيكون ظرف الزمان موجوداً فى واحدة،

وظرف المكان موجوداً في واحدة، وكلاهما يدل على الآخر. والمثال على ذلك أنه بعد أن انتهت هذه الغزوة، وعاد المسلمون إلى المدينة مجهدين لم يخلعوا ملابس الحرب، قال لهم رسول الله ﷺ: « لا يصلين أحد العصر إلا في بنى قريظة »[1].

فانطلق المسلمون - دون أن يستريحوا - إلى أرض بنى قريظة، وهم اليهود الذين كانوا يسكنون المدينة، وخانوا عهد رسول الله ﷺ وتحالفوا مع الكفار ضد المسلمين، وبينما الصحابة فى طريقهم إلى بنى قريظة كادت الشمس تغيب، فقال بعض الصحابة : إن الشمس ستغيب ولابد أن نصلى العصر، وصلوا. وفرقة ثانية من الصحابة قالت: إن رسول الله ﷺ طلب منا ألا نصلى العصر إلا فى بنى قريظة ولم يُصَلُّوا حتى وصلوا إلى هناك.

ونقول: إن الفريقين استخدما المنطق؛ لأن الصلاة تحتاج إلى ظرف زمان وظرف مكان، فالذى نظر إلى ظرف الزمان قال: الشمس ستغيب، وصلى، والذى نظر إلى ظرف المكان الذى حدده رسول الله ﷺ؛ لم يُصَلِّ. وأقر رسول الله ﷺ الفريقين، واحترم اجتهادهما فى: ظرفية الزمان، وظرفية المكان. وفى هذا يروى نافع عن ابن عمر رضى الله عنهما أن النبى ﷺ قال يوم الأحزاب: « لا يصلين أحد العصر إلا فى بنى قريظة » فأدرك بعضهم العصر فى الطريق فقال بعضهم: لا نصلى حتى نأتيهم، وقال بعضهم: بل نصلى، لم يُرَدْ منا ذلك، فذُكر ذلك للنبى ﷺ فلم يعنف واحداً منهم.

﴿ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئاً ﴾ والغنى هو عدم الحاجة إلى الغير، وحنين [2] هو موضع فى وادٍ بين مكة والطائف، تجمَّع فيه الكفار الذين ساءهم فتح المسلمين لمكة، فأرادوا أن يقوموا بعملية مضادة تُضيِّع

(١) متفق عليه. أخرجه البخارى (٩٤٦)، ومسلم (١٧٧٠) من حديث ابن عمر.
(٢) حنين: اسم موضع بأوطاس، عرف باسم رجل اسمه: حنين بن قانية بن مهلائيل من العماليق، كما فى معجم البكرى.

قيمة هذا النصر. فاجتمعت قبائل هوازن وثقيف، واختاروا مالك بن عوف ليكون قائدهم فى هذه المعركة. واستطاع مالك بن عوف أن يجمع أربعة آلاف مقاتل، وانضم إليهم عدد من الأعراب المحيطين بهم. ووضع مالك خطته على أساس أن يخرج الجيش ومعه ثروات المشاركين فى الجيش من مال، وبقر وإبل. وأن يخرج مع الجيش النساء والأطفال. وذلك حتى يدافع كل واحد منهم عن عرضه وماله فلا يفر من المعركة، ويستمر فى القتال بشجاعة وعنف؛ لأنه يدافع عن نسائه وأمواله وأولاده. وبذلك وضع كل العوامل التى تضمن له النصر. بينما المؤمنون عندما تبدأ المعركة سيقاتلون مدافعين عن دين الله ومنهجه.

واجتمع الكفار ونزلوا بواد اسمه « وادى أوطاس ». وكان فيهم رجل كبير السن ضرير. اسمه « دريد بنُ الصِّمة ». وكان رئيساً لقبيلة « جشم ». فلما وصل إلى مكان المعركة سأل: بأى أرض نحن؟ فقالوا: نحن بوادى أوطاس.. فابتسم وقال: «لا حزناً ضرس ولا سهلاً دهس، أى أنها أرض مناسبة ليس فيها أحجار مدببة، تتعب الذى يسير عليها، وليست أرضا رخوة تغوص فيها أقدام من يسير عليها، من « الحزن » فالحزن هو: الخشونة والغلظة، و«ضرس » هو: التعب أثناء السير، وأيضاً ليست أرضاً سهلة منبسطة رملية تغوص فيها الأقدام.

وعندما سمع العجوز بكاء الأطفال وثغاء [1] الشاة، قال: أسمع بكاء الصبيان وخوار البقر. فقالوا له: إن مالك بن عوف استصحب ذراريه واصطحب كل أمواله، فقال: أما الأموال فلا بأس، وأما النساء والذرارى فهذا هو الأرعن - أى: لا يفهم فى الحرب - أرسلوه لى، فأحضروه له. فلما حضر قال: يا مالك ما حملك على هذا؟ قال: وماذا تريد؟ قال: ارجع بنسائك وذراريك إلى عُلْيًا دارك، فإن كان الأمر لك؛ لحقك من ورائك. وإن

(١) ثغاء الشاة: صوت الغنم والماعز وضجيجها.

كان الأمر عليك لم تفضح أهلك وذراريك. فقال له مالك: لقد كبرت وذهب علمك وذهب عقلك. وأصر على رأيه. ثم بدأ مالك بن عوف يرتب الجيش في الشِّعَاب وتحت الأشجار حتى لا يراهم المسلمون عند مجيئهم. فيتقدمون غير متنبهين للخطر، وحينئذ يتم الهجوم عليهم من كل جهة ومن كل مكان.

وعندما جاء جيش المسلمين لم يتنبهوا إلى وجود الكفار المختفين عن الأعين. وحينئذ أعطى مالك بن عوف إشارة البدء بالهجوم، فخرج الكفار من كل مكان. وفاجأوا المسلمين بهجوم شديد، قال المتحدث: فوالله ما لبث المسلمون أمامهم إلا زمن حلب شاة، حتى إنه من قسوة المعركة وضراوتها وقوة المفاجأة انهزم جيش المسلمين في الساعات الأولى للمعركة، ووصل بعض الفارين من القتال إلى مكة ولم يبق مع رسول الله ﷺ في ساحة المعركة إلا تسعة بينهم العباس عم رسول الله ﷺ. وكان ممسكاً بالدابة التي يركبها رسول الله ﷺ. وسيدنا على بن أبي طالب وكان يحمل الراية. وسيدنا الفضل، وكان يقف على يمين رسول الله ﷺ. وسيدنا أبو سفيان بن الحارث ابن عم رسول الله ﷺ وكان يقف على يساره. وكان معهم أيمن بن أم أيمن وعدد من الصحابة (١).

وهنا نتساءل: لماذا حدثت هذه الهزيمة للمسلمين في بداية المعركة؟ لأنهم عندما خرجوا إلى الحرب قالوا: نحن كثرة لن نهزم من قلة، وبذلك ذهبوا إلى الأسباب وتناسوا المسبب، فأراد الله أن يعاقبهم عقاباً يخزيهم ويُعْلي من قدر رسول الله ﷺ. ولما رأى رسول الله ﷺ ما حدث، قال للعباس - وكان العباس صاحب صوت عال: أذن في الناس، فقال العباس بصوت عال: يا معشر الأنصار - يا أهل سورة البقرة، يا أهل بيعة الشجرة. فلما سمع الناس نداء العباس، قالوا: لبيك لبيك. وكان الذي يقول: « لبيك » يسمعه من هم وراءه ويقولون مثله، حتى عاد عدد كبير من المؤمنين إلى القتال، وحمى القتال

(١) انظر: زاد المعاد في هدى خير العباد (٢/ ١٨٥ - ١٨٧).

واشتدت الحرب وصار لها أوار[1] ، فضحك رسول الله ﷺ : الآن حمى الوطيس ، أي اشتدت الحرب ، ثم قال عليه الصلاة والسلام: « أنا النبى لا كذب ، أنا ابن عبد المطلب».

ويروى هذا الحديث عن النبى ﷺ البراء بن عازب ، فقد جاء فى الصحيحين عن البراء بن عازب رضى الله عنه . أن رجلاً قال له : يا أبا عمارة أفررتم عن رسول الله ﷺ يوم حنين ؟ فقال : لكن رسول الله ﷺ لم يفر ، إن هوازن كانوا قوماً رُمَاةً ، فلما لقيناهم وحملنا عليهم انهزموا ، فأقبل الناس على الغنائم ، فاستقبلونا بالسهام ، فانهزم الناس ، فلقد رأيت رسول الله ﷺ، وأبو سفيان بن الحارث آخذ بلجام بغلته البيضاء وهو يقول : «أنا النبى لا كذب . أنا ابن عبد المطلب» [2] أى : أنه رسول الله ، والله لن يتخلى عنه ولن يخذله، ولم يثبت أمام المؤمنين واحد من هوازن وثقيف، وانتهت المعركة عن ستة آلاف أسير من النساء ، كما غنم المسلمون أموالاً لا حصر لها وعدداً كبيراً من الإبل والبقر والغنم والحمير. وأحضر رسول الله ﷺ بديل بن ورقاء وقال له : أنت أمير على هذا المغنم. اذهب به وأنا سأتتبع الهاربين.

وانطلق جيش المسلمين إلى الطائف ليطارد الفارين. واختبأ مالك بن عوف قائد العدو. ثم عاد رسول الله ﷺ بعد ذلك وقسم الغنائم، وكاد تقسيم الغنائم أن يحدث فتنة بين المسلمين ؛ لأن الرسول ﷺ أعطى الغنائم للمؤلفة قلوبهم، ولسائر العرب ولم يعط منها الأنصار ، لقد أراد رسول الله ﷺ أن يقارن بين شيئين، بين سبايا هى أيضاً من متاع الدنيا فيعطى منها المؤلفة قلوبهم وبين حب الله ورسوله فيكون حظ الأنصار منه ، فالأنصار الذين آووه ﷺ فى رأيه ﷺ يستغنون بحبهم لرسول الله وقوة إيمانهم بالله عن مثل هذا المتاع الدنيوى، إلا أنه على الرغم من ذلك شعر بعض من الأنصار بالغُصَّة، وتأثر هذا البعض بذلك.

(١) الأوار : الدخان واللهب .
(٢) متفق عليه . أخرجه البخارى (٤٣١٧) ، ومسلم (١٧٧٦) عن البراء بن عازب .

لما أعطى رسول الله ﷺ ما أعطى من تلك العطايا فى قريش وقبائل العرب ولم يكن فى الأنصار منها شيء ، وجد هذا الحى من الأنصار فى أنفسهم حتى كثرت فيهم القالة ، حتى قال قائلهم : لقى رسول الله ﷺ قومه فدخل عليه سعد بن عبادة فقال : يا رسول الله إن هذا الحى قد وجدوا عليك فى أنفسهم لما صنعت فى هذا الفيء الذى أصبت ، قسمت فى قومك وأعطيت عطايا عظاماً فى قبائل العرب ، ولم يكن فى هذا الحى من الأنصار شيء . قال : فأين أنت من ذلك يا سعد ؟ قال : يا رسول الله ما أنا إلا امرؤ من قومى وما أنا . قال : فاجمع لى قومك فى هذه الحظيرة . قال : فخرج سعد فجمع الناس فى تلك الحظيرة . قال : فجاء رجال من المهاجرين فتركهم فدخلوا وجاء آخرون فردهم ، فلما اجتمعوا أتاه سعد فقال : قد اجتمع لك هذا الحى من الأنصار قال : فأتاهم رسول الله ﷺ فحمد الله وأثنى عليه بالذى هو له أهل . ثم قال : يا معشر الأنصار ما قَالَةٌ بلغتنى عنكم وجدَةٌ وجدتموها فى أنفسكم، ألم آتكم ضلالاً فهداكم الله ، وعالة فأغناكم الله ، وأعداء فألف الله بين قلوبكم . قالوا : بل الله ورسوله أمنُّ وأفضل . قال : ألا تجيبونى يامعشر الأنصار ؟ قالوا : وبماذا نجيبك يا رسول الله ولله ولرسوله المنُّ والفضل ؟ قال : أما والله لو شئتم لقلتم فلصدقتم وصدقتم ، أتيتنا مكذَّباً فصدقناك ، ومخذولاً فنصرناك ، وطريداً فآويناك ، وعائلاً فأغنيناك (١)

أى : أن رسول الله ﷺ ذكر لهم ثلاثة أشياء من فضل الإسلام عليهم، وهى أنه نقلهم من الضلال إلى الهدى ، ومن الفقر إلى الغنى ، ومن العداوة إلى الأخوة والمحبة.

وعندما تحدث رسول الله ﷺ عن فضل الأنصار على الدعوة ذكر أربع

(١) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده (٣/ ٧٦) عن أبى سعيد الخدرى من طريق ابن إسحاق . وقد أورده ابن هشام فى سيرة النبى (٤/ ١٤٦).

فضائل ، وهى أن أهل مكة كانوا قد حاولوا قتل الرسول ﷺ فهاجر منها فآواه أهل المدينة ، وجاء الرسول والمؤمنون إلى المدينة لا يملكون شيئاً ، فأعطاهم الأنصار من أموالهم وزوجاتهم ، وكان الكفار يحاولون قتل رسول الله ﷺ فأمّنه الأنصار ، وكان رسول الله ﷺ قد خذله قومه من قريش فنصره الأنصار.

عندما سمع الأنصار قول رسول الله ﷺ في ذكر مفاخرهم. قالوا: المنة لله ولرسوله، أى : إننا معشر الأنصار لا نقول هذا الكلام الذى قلته أبداً؛ لأن حلاوة الإيمان وجزاء الإيمان أكبر من هذا بكثير ، وبهذا لا يكونون هم الذين أعطوا ، بل الإيمان هو الذى أعطاهم. فالإيمان نَفعُه نَفْع أبدى. والحق تبارك وتعالى يقول:

﴿ قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُم بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ ﴾

[الحجرات: ١٧]

وعندما قال الأنصار لرسول الله ﷺ : بل المنة لله ولرسوله ، قال لهم رسول الله عليه الصلاة والسلام:

« أوجدتم فى أنفسكم يا معشر الأنصار فى لعاعة [(١)] من الدنيا تألَّفتُ بها قوماً ليسلموا ووكلتكم إلى إسلامكم، أفلا ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب الناس بالشاة والبعير ، وترجعون برسول الله ﷺ فى رحالكم، فوالذى نفس محمد بيده لولا الهجرة لكنت امرءاً من الأنصار ، ولو سلك الناس شعْباً وسلكت الأنصار شعباً لسلكت شعْب الأنصار ، اللهم ارحم الأنصار وأبناء الأنصار وأبناء أبناء الأنصار». فلما سمعوا هذا القول من رسول الله ﷺ بكَوْا حتى اخضلَّتْ لحاهم وقالوا : رضينا بالله وبرسوله قسماً وحظاً. وانتهت المسألة.

(١) لعاعة من الدنيا : أى بقية يسيرة . وهذا الحديث هو بقية الحديث السابق ، وقد سبق تخريجه .

وهكذا نرى أنه حين تأتى مقارنة بين شيئين ، لابد أن نتفاخر بالشىء الدائم الباقى الذى حصلنا عليه، أما الشىء الذى مآله إلى فناء فإنَّ من ليس معه يعيش كمن عاش معه، وهو متاع الدنيا، تعيش معه وتعيش بدونه. ولكن لاأحد يستغنى عن الإيمان ، نستغنى عن الدنيا نعم، أما عن الإيمان وعن الله ورسوله فلا. وبعد أن قسم رسول الله ﷺ الغنائم، جاء وفد هوازن رسول الله ﷺ وهو بالجعرانة وقد أسلموا . فقالوا : يا رسول الله إنَّا أصل وعشيرة ، وقد أصابنا من البلاء ما لا يخفى عليك فامنن علينا منّ الله عليك . فقال رسول الله ﷺ : أبناؤكم ونساؤكم أحب إليكم أم أموالكم ؟ قالوا : يا رسول الله خيَّرتنا بين أحسابنا وبين أموالنا بل تردُّ علينا نساؤنا وأبناؤنا فهو أحب إلينا فقال لهم : أما ما كان لى ولبنى عبد المطلب فهو لكم فإذا صليت للناس الظهر فقوموا فقولوا : إنا نستشفع برسول الله ﷺ إلى المسلمين وبالمسلمين إلى رسول الله ﷺ فى أبنائنا ونسائنا فسأعطيكم عند ذلك وأسأل لكم . فلما صلى رسول الله ﷺ بالناس الظهر قاموا فتكلموا بالذى أمرهم به فقال رسول الله ﷺ : أما ما كان لى ولبنى عبدالمطلب فهو لكم . قال المهاجرون : وما كان لنا فهو لرسول الله ﷺ ، وقالت الأنصار : وما كان لنا فهو لرسول الله ﷺ. قال الأقرع بن حابس : أما أنا وبنو تميم فلا . وقال عيَيْنة بن حصن بن حذيفة بن بدر : أما أنا وبنو فزارة فلا . قال عباس بن مرداس: أما أنا وبنو سليم فلا ، قالت بنو سليم : لا ، ما كان لنا فهو لرسول الله ﷺ. فقال عباس : يابنى سليم وهنتمونى . فقال رسول الله ﷺ : أما من تمسك منكم بحقه من هذا السبى فله بكل إنسان ست فرائض من أول شىء نصيبه ، فردوا على الناس أبناءهم ونساءهم [1] . ذلك هو ما يشير إليه قول الحق، تبارك وتعالى:

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (٢/ ٢١٨) والنسائى فى سننه (٦/ ٢٦٢) عن عبدالله بن عمرو بن العاص من طريق محمد بن إسحاق، وأورده ابن هشام فى السيرة (٤/ ١٣٥). وانظر : تفسير القرطبى (٤/ ٣٠٢٨) .